ولكن كان جل معول الاطباء الاقدمين على النظر في تاريخ المرض فكانوا يشخصون الكلب بالعلامات المعروفة منذ قرون والحمى القرمزية من الفاط الذي يظهر في الجسم وغيره من التغيرات البسيطة الواضحة . والزهري من القرحة الخاصة به . ثم تقدموا تقدماً بطيئاً فصاروا يستعينون على معرفة الامراض بافرازات الجسم فعولوا مثلاً على النظر فقط في فحص البول ونسبوا اختلاف الرائحة الى اختلاف المرض وقسموا الصديد الى قسمين سليم ورديء . فمن الصعب ان نسمي هذه النظريات البسيطة علم طب ازاء ما وصل اليه المتأخرون من الحقائق الراسخة فانهم لم يكتفوا بالحواس الطبيعية بل اكتشفوا وسائط تعينهم في مباحثهم فلينك (Laennec) استنبط طريقة لسماع اصوات الجسم ورتب تلك الاصوات حسب العلة التي في العضو واكتشف اونبرجر (Auenbrugger) طريقة القرع (Pecrussion) وكتب عنها كتابات شيقة. هذه طرق عملية لا شائبة فيها فاذا قرعت صدر رجل تصلدت رئتهُ اثر ذات الجنب وجدت صمماً لا يتغير كلما قرعت واذا تسمعت اصوات قلب اعتلت صمامانهُ سمعت في كل حين اللغط الناشئ من ارتداد الدم . كانت كتب الطب في ذلك العصر مجموعة حقائق توصل اليها المؤلفون والباحثون بملاحظاتهم الدقيقة ولكن شابها بعض النظريات الغريبة والمسلمات السطحية التي تشبث مؤلفو تلك الكتب بها . عرفوا مثلاً ان الكينا تمنع قشعريرة البرداء (الملاريا) وحرارتها ولكنهم لم يتوصلوا الى معرفة الحقيقة التي اكتشفها لافاران ورأس من ان سبب الملاريا طفيل ينتقل من شخص الى آخر بواسطة البعوض (البرغش)

الجراثيم (المكروبات) سبب الامراض عرف الاقدمون فائدة الزئبق في مرض الزهري ولكنهم لم يعرفوا ان سببهُ مكروب لولبي كما بين شودن (Schaudinn) وانهُ ينتقل من شخص الى آخر . كذلك عرفوا ان بعض الادوية تقوي القلب ولكن لم يعلموا ان فعلها ناجم عن تأثيرها في اعصاب القلب . وقد رافق علم الطب في كل الاعصر نظريات كثيرة كان لها من الشأن ما للحقائق التي كانت تسلّم لطلبة الطب حينئذٍ لذلك كان قد حان الوقت ومُهدت السبل لعالم كباستور يزيل الشبهات التي دخلت علم الطب

يعزى تقدم علم الطب الباهر في الخمسين سنة الاخيرة الى عدة عوامل : اولاً الى تبدل عقيدة الباحثين في منشأ الامراض وتحولهم عن نظرية التولد الفجائي الى النظرية التي لا

تزال تدعى خطأً النظرية الجرثومية (germ theory) ثانياً تطبيق علم الكيمياء والتشريح والفسيولوجيا على علم الطب ثالثاً استنباط آلات ميكانيكية تساعد حواس المرء في اكتشاف الامراض واعمال الاعضاء

وبعد ان اكتشف باستور المكروبات وبين انها سبب الامراض جاء روبرت كوخ الالماني مكتشف مكروب السل وازاح النقاب عن قاعدتين صارتا اساساً لمعرفة علاقة مرض ما بمكروب خاص وهي اولاً وجود مكروبات المرض الخاصة في الاشخاص الذين يموتون به وثانياً احداث المرض في حيوان او انسان حين تلقيحه بتلك المكروبات

ولا داعي الى تعداد كل الامراض التي اكتشفت مكروباتها كالسل والزهري والدفتيريا والحمى التيفوزية والتهاب سحايا الدماغ والحمى التيفوئيدية والدوسنطاريا والبثرة الخبيثة والهيضة الاسيوية (كوليرا) والبرداء (الملاريا) وكثير غيرها ولا تكاد تمضي سنة دون ان يكتشف مكروب او يظهر سر غامض. ومعرفة هذه الحقائق من الاهمية بمكان فاما ان نعرض عنها ونسلم بنظريات الدجالين غير المعقولة او نسلم بها. فنظريات الدجالين تقول بوحدة سبب الامراض فلو سلمنا جدلاً بنظرية ستل (Still) مؤسس مذهب الاستيوبثي Osteopathy اي المعالجة بالضغط القائلة بان سبب الامراض ضغط على الشريانات يعيق دوران الدم في الاعضاء لعللناها بالتعليل الآتي: وهو ان الضغط المذكور لو فرضت صحتهُ يضعف مقاومة الجسم ومتى ضعفت هاجمتهُ المكروبات. ان هذا التعليل يروق جداً انصار هذا المذهب ولكن مع الاسف لا وجود لهذا الضغط ولا برهان علمي يدل عليهِ. فهل نقاس هذه النظرية بنظرية المكروبات التي ثبت انها سبب الامراض ومتى تكاثر عددها في جسم ما تولد في ذلك الجسم المرض المختص بها. وعليهِ نرى انفسنا مسوقين بسائق الطبع الى نبذ نظريات الدجالين الذين يعتقدون ان لا وجود للامراض وان سببها تغير الاهتزازات او ضغط على الاعصاب او خطأ في التغذية وما اشبه امام المكتشفات البكتريولوجية المؤسسة على العلم الصحيح. ومما يؤسف لهُ ان طائفة من الامراض التي ثبتت عدواها وانتقالها من شخص الى آخر لم تكتشف مكروباتها بعد كالحصبة وجدري

الماء وابو كعيب والحصبة الالمانية والجدري والتهاب الدماغ السباتي وغيرها مع ان العلم عرف حقائق كثيرة عنها . فاذا ادخلنا دم شخص مصاب بالحصبة الى جسم صحيح أُصيب ذلك الجسم بها واذا حُقن دم شخص نقه منها في دم من لم يُصب بها وقتهُ تلك الحقنة منها

نشوء مضادات السموم كل يعلم ان تلقيح مادة بثور الجدري في الجسم الصحيح يولّد هذا المرض فيهِ وان اللقا المأخوذ من البقر الملقح يوقي الجسم شر الجدري . ولا يزال العلماء يكدون و يجدون في كشف اسباب الامراض المجهولة . ولدينا عدد منها ادّعى الاطباء اكتشاف سببها وهي مطروحة الآن على بساط البحث والتمحيص

ان نغوشي (Noguchi) الجراحة الياباني الكبير واحد اعضاء معهد ركفلر عزل جرثومة ادعى انها سبب الحمى الصفراء وقد اخذ العلماء في كل الانحاء المنتشرة فيها هذه الحمى يجربون التجارب العلمية لتحقيق دعواهُ او تفنيدها . كذلك بيّن الطبيبان جورج غلادس ومنري دك ان سبب الحمى القرمزية نوع من الستربتوكوكس يحلل الدم او يتلفهُ وهو من نوع البكتيريا المستديرة التي تظهر بشكل سلسلة و يمكن احداث هذا المرض بحقن مرشحهِ في الجسم وقد صنعوا من المرشح كاشفاً اشبه بكاشف شك Schick في مرض الدفتيريا وهذا الكاشف ينبئ هل الشخص مصاب بالحمى المذكورة او معرّض لها . وتدل الدلائل على ان هذه النظرية ستحقق . وقد لقح دك Dick وزوجتهُ حصاناً بسموم مرشحة مأخوذة من الستربتوكوكس سبب الحمى القرمزية واستخرجا من الحصان مصلاً واقياً من هذه الحمى كما اتضح من الكاشف الذي جرباهُ في اجسام المصابين . وفي الوقت ذاتهِ استنبط دوشز و بلايك طريقة لتوليد زرع من بكتيريا الحمى القرمزية وتلقيح حصان بهذا الزرع فنمت مكروبات الحمى في دم الحصان وتولد فيهِ مضادات لسموم الحمى وغيرها من السموم الموجودة في نفس المكروبات وقد استفاد مستحضرو هذه الادوية من هاتين الطريقتين وصنعوا المستحضرات المضادة لهذا المرض . اما فيما يتعلق بالانفلونزا فقد وجد الدكتوران اولتزكي وغايتس Drs. Olitzky & Gates من معهد ركفلر باشلس سموهُ باشلس بنيومنتس Bacillus pneumosintes ووصف روزنو E. C. Rosenow من مستوصف مايو Mayo نوعاً من الستربتوكوكس المولد للصبغ الاخضر هذا فضلاً عن باشلس فيفر Pfeiffer الالماني المعروف

بغداد الدكتور شريف عسيران